من أخبار المسافرين (١٢)

يا أبا بكر لا تسافر

أبوبكر الصديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ تُحدِّثنا ابنته عائشة رضي الله عنها فتقول: لم أعقل أبواي قط إلاَّ وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلاَّ يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتُليَ المسلمون خرج أبوبكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبابكر؟ فقال أبوبكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. فقال ابن الدغنة فإن مثلك يا أبابكر لا يَخْرج ولا يُخْرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وأنا لك جار فارجع فاعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبابكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم يكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة: مر أبابكر فليعبد ربه في داره ويصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ابن الدغنة ذلك لأبي بكر، فلبث أبوبكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره. ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فكان نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه. وكان أبوبكر رجلاً بكَّاءاً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى

ابن الدغنة فقدم عليهم. فقالوا: إنا كنا أجرنا أبابكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتتن أبناؤنا ونساؤنا فانهه فإن أحب على أن يقتصر ويعبد ربه في داره فعل، وإن أبىٰ إلاَّ أن يعلن ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.
قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي قد عاقدتُ عليه قريش فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد إليَّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفرتُ في رجل عقدت له. فقال أبوبكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضىٰ بجوار الله عز وجل.

عجائب من سفر العبّاد

هذا الإمام العالم العابد: «مسروق» أحد التابعين العظماء سافر للحج فما نام إلاَّ ساجداً!!!

وهذا المغيرة بن الحكيم الصنعاني يسافر للحج من اليمن ماشياً على قدميه وكان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن، فيقف فيصلي حتى يفرغ من ورده ثم يلحق بالركب متى لحق، فربما لم يلحقهم إلاَّ في آخر النهار!!!

وهذا إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد كان إذا أراد السفر يشترط على أصحابه في السفر أن تكون الخدمة والأذان له طيلة السفر.

وقد سافر في مرَّة من المرات مع بعض إخوانه ورفقائه وأوى بهم السفر إلى مسجد مهجور ليس له باب، وكانت الليلة من ليالي الشتاء الباردة، فانتظر حتى نام إخوانه، ثم قام بالباب حتى الصباح لكي يسد الباب عنهم بجسمه عن الهواء والبرد القارس!!!

وهذا بهيم العجلي وكان من العباد البكائين ترافق في سفره مع رجل تاجر موسر وسافرا للحج فلما كان يوم خروجهم للسفر بكى بهيم حتى قطرت دموعه على صدره، ثم قطرت على الأرض، وقال: ذكرت بهذه الرحلة الرحلة إلى الله، ثم علا صوته بالنحيب، فكره رفيقه التاجر منه ذلك، وخشي أن يتنغص عليه سفره معه بكثرة بكائه، فلما قدما من الحج جاء الرجل الذي رافق بينهما إليه لِيُسَلّم عليهما فبدأ بالتاجر فسلم عليه، وسأله عن حاله مع بهيم فقال له: والله ما ظننت أن في هذا الخلق مثله،

كان والله يتفضل عليَّ في النفقة وهو معسر وأنا موسر، ويتفضل عليَّ في الخدمة وهو شيخ ضعيف وأنا شاب، ويطبخ لي وهو صائم وأنا مفطر، فسأله عمَّا كان يكرهه من كثرة بكائه فقال: والله أَلِفت ذلك البكاء وأُشرب حبه قلبي حتى كنت أساعده عليه حتى تأذى بنا الرفقة، ثم ألفوا ذلك، فجعلوا إذا سمعونا نبكي بكوا، ويقول بعضهم لبعض: ما الذي جعلهما أولى بالبكاء منا والمصير واحد، فجعلوا والله يبكون ونبكي، ثم خرج من عنده فدخل على بهيم فسلّم عليه وقال له: كيف رأيت صاحبك؟ قال: خير صاحب، كثير الذكر لله، طويل التلاوة للقرآن، سريع الدمعة، متحمل هفوات الرفيق، فجزاك الله عني خيراً.

من أخبار المسافرين (١٣)

مُوَفّق ومخذول

وحكى محمد بن سليمان القرشي قال: بينما أنا أسير في بعض الطرق، إذا أنا بغلام واقف على الطريق، فسلمت عليه فقال: ما أردُّ عليك حتى تؤدي حقي. قلت: وما حقك؟ قال: أنا غلام على مذهب إبراهيم الخليل عليه السلام، لا أتغدى ولا أتعشى حتى أسير الميل والميلين في طلب الضيف. فأجبته إلى ذلك، فرحب بي، وسرت معه حتى قربنا من خيمة، وصاح: ياأختاه. فأجابته: يا لبيكاه. فقال: قومي إلى ضيفنا. فقالت: حتى أبدأ بشكر المولى الذي سبب لنا الضيف، فصلت ركعتين، وأخذ الغلام الشفرة فذبح عناقاً، فلما جلستُ في الخيمة، نظرت إلى جارية من أحسن الناس وجهاً، فكنت أسارقها النظر، ففطِنتْ، فقالت: مهْ، أما علمت أنه نُقِل إلينا أن زنا العينين النظر.

فلما نمتُ بالليل سمعت دويّ القرآن طول الليل، فلما أصبحت قلت للغلام: من كان يتلو ذلك القرآن؟ قال: أختي تحيي الليل كله إلى الصباح.

فقلت: يافتى أنت أحق بهذا من أختك؛ لأنك رجلٌ وهي امرأة، فتبسم وقال: ويحك أما علمت أنه مُوفَّقٌ ومخذول؟!

من أحكام السفر

لما كان السفر قطعة من العذاب، جعل الله له رخصاً تيسره وأحكاماً تَخُصُّه، تخفيفاً على هذه الأمة، مِنَّةً منه ورحمة، وكان هدي النبي ﷺ في السفر أيسر الهدي وأتمَّه، فكان ﷺ يستحب السفر يوم الخميس في أول النهار، وكان يقول: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**» [رواه أحمد]

ونهى الرجل أن يسافر وحده وأمره بالرُّفْقة فقال: «**الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**» [رواه الترمذي]

وأمرهم أن يتخذوا أميراً في سفرهم ينظم لهم أمرهم فقال: «**إذا كنتم ثلاثة في سفر فلتؤمروا أحدكم**» [رواه أبوداود]

ونهى المرأة أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلاَّ مع ذي محرم لها.

ورخَّص ﷺ للمسافر أن يمسح على الخفين ثلاثة أيام بلياليهن.

وكان من هديه ﷺ أن يقتصر في سفره على صلاة الفريضة ولم يُحفظ عنه ﷺ أنه صلَّى سنة الصلاة قبلها ولا بعدها في سفر، إلاَّ ما كان من الوتر وسنة الفجر، فإنه لم يكن ليدعها حضراً ولا سفراً وكان يقول: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**» [رواه البخاري].

وكان يقصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين، ولم يثبت عنه ﷺ أنه أتمَّها في سفر قطُّ، إلاَّ إذا كان المسافر مُؤْتَماً فإنه يتم مع الإمام المقيم، فقد سُئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن ذلك فقال: تلك سنة أبي القاسم ﷺ. [رواه مسلم].

وكان إذا جَدَّ به السير فارتحل قبل زوال الشمس، أخَّر الظهر إلى

العصر، وإذا ارتحل بعد زوال الشمس قدَّم العصر مع الظهر فصلاهما جميعاً، وكذلك المغرب والعشاء. وكان إذا نزل منزلاً صلىٰ كلَّ صلاةٍ في وقتها، وتارة يجمع بين الظهرين، وبين العشائين.

وكان ﷺ يصلي النافلة على راحلته وهو مسافر، فيستقبل بها القبلة عند تكبيرة الإحرام، ثم يتوجَّه بها إلى حيث يشاء، وتارةً يصلي عليها ابتداءً حيث توجَّهت به، وكان يومئ برأسه لركوعه وسجوده، وسجوده أخفض من ركوعه.

وأما الفريضة فكان لا يصليها على الراحلة بل ينزل إلى الأرض، ورخَّص لأهل السفينة أن يصلوا الفريضة عليها، وألحق بعض العلماء الطائرة بها، فجوَّزوا صلاة الفريضة عليها إذا كان السفر طويلاً حتى ولو لم يتمكن المصلي من التوجه إلى القبلة.

ورخَّص ﷺ للمسافر ترك الجمعة فقال:

«ليس على مسافر جمعة» [رواه الطيالسي والطبراني]

ولم يصلها في سفره قطُّ.

وكان ﷺ إذا سافر في رمضان يفطر، وسأله حمزة بن عمرو الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ وكان كثير الصيام: أأصوم في السفر؟ فقال له النبي ﷺ:

«إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر» [متفق عليه]

وكان ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه فأيُّهن خرج سهمها سافر بها معه.